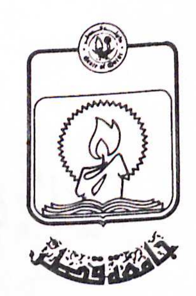


حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الرابع عشر

١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

المدخل الرمزي لدراسة المجتمع

الدكتور / السيد حافظ الاسود

مدرس بقسم الاجتماع

كلية الآداب جامعة طنطا

بالرغم من ان اهتمام علم الانثروبولوجيا بالرموز والسلوك الرمزي في دراسة الثقافة والمجتمع يرجع الى مائة سنة على الاقل الا ان هذا الاهتمام وخاصة في فترة ما قبل الستينات من هذا القرن لم يتصف بالاتساق والتركيز ولم ينتج عنه دراسة رمزية او منهجا رمزيا متكاملا في دراسة الظواهر الاجتماعية. وفي الستينات والسبعينات من هذا القرن الى الوقت الحاضر شهدت العلوم الانثروبولوجية والاجتماعية تطورا ملحوظا اتسم بالسرعة والتركيز في تأسيس وتطبيق المناهج والنظريات التي تتخذ من الرموز في اي شكل لها محاورا اساسية في دراسة وتحليل المجتمعات والثقافات.

وفي حقيقة الامر لا تقتصر دراسة الرموز على العلوم الانثروبولوجية والاجتماعية بل انها تحتل مكانا متميزا في الدراسات الفلسفية واللغوية والادبية والفولكلورية والسيكولوجية وغيرها من الدراسات. وكل دراسة من هذه الدراسات تتناول الرموز بالبحث طبقا لمنهج او مدخل معين يميزها دون سائر الدراسات الاخرى بالرغم من وجود نوع من التداخل والاعتماد المتبادل فيما بينها. وفي هذه الدراسة التي نحن بصددها سوف لا تتناول الاختلافات والفروق المنهجية بين تلك العلوم المختلفة، اذ ان ذلك يحتاج لدراسة مستقلة، بل سوف نستعرض اهم المناهج والنظريات او المداخل الرمزية داخل علم الانثروبولوجيا ذاته، وبعبارة اخرى سوف تتعرض الدراسة للنقاط التالية:

اولا: اهم التعريفات والاستخدامات المختلفة للرمز.

ثانيا: اهم خصائص ووظائف الرموز المتميزة والتي جذبت انتباه واهتمام المشتغلين بالدراسات الرمزية.

ثالثا: التصنيف الانثروبولوجي للرموز.

رابعا: دراسة تحليلية مقارنة لاهم المداخل او المناهج والنظريات الرمزية في دراسة المجتمع والتي تشكل في مجموعها ما يعرف الآن بالانثروبولوجيا الرمزية.
Symblic Anthropology

مشكلة التعريف:

ان مشكلة تعريف كلمة او تصور «رمز» لا زالت موضع الاعتبار والنظر من قبل علماء الانثروبولوجيا. ويتساءل بعض هؤلاء العلماء مثل ملفورد سبيرو Melford Spire «ما هو الرمز...؟ وبصورة اكثر تحديدا ما هو الرمز الثقافي» (١). بينما يذهب ريموند فيرث Raymond Firth قائلا «اننا نحتاج لفحص ماذا يقصد بكلمة رمز» (٢). ويؤكد كذلك جيمس فيرناندز James Fernandez ذاهبا الى ان مصطلح او تصور «رمز» هو تصور له معان وتعريفات متعددة وكثيرة بشكل يستلزم اعادة فحصه (٣).

يمكن القول ان هناك اربعة اتجاهات رئيسية في استخدام تصور «رمز»، ويمكن اجمال المبادىء الاساسية لهذه الاتجاهات فيما يلي:

اولا: اصحاب الاتجاه الاول لا يتقيدون في دراساتهم بمشكلة تعريف الرمز معتقدين ان معناه من البداهة والوضوح بحيث لا يحتاج الى تعريف محدد بالذات. ويتزعم هذا الاتجاه جود فري لينهارت Godfrey Lienhardt الذي لم يقدم تعريفا واحدا للرمز في دراسته عن الدنكا The Dinka والذي خصص فيها فصلا كاملا عن الفعل الرمزي Symbolic action بالاضافة الى الاستخدامات المتعددة لمصطلح «الرمز» في تلك الدراسة. ويذهب لينهارت الى انه يمكن النظر الى الرموز من جانبين. فمن ناحية يمكن اعتبارها شكلا من اشكال التشبيه او المجاز metaphor، ومن ناحية اخرى يمكن اعتبارها فعلا من الافعال الرمزية. فالماشية في مجتمع الدنكا تعتبر مصدرا غنيا لكثير من التشبيهات والمجازات الجوهرية ذات التأثير الكبير على مدركات الافراد الحسية وتفكيرهم ومشاعرهم وسلوكهم، وهي باختصار المجاز الجوهري root mata-

phor فالادراك الحسي للون والضوء والظل الذي يدركه افراد مجتمع الدنكا عن العالم المحيط بهم يكون مرتبطا بصورة جوهرية ومتأثرا بادراكاتهم ومعرفتهم لتشكيلات الالوان المميزة للماشية والتي اختبروها منذ طفولتهم المبكرة. واذا ما استبعدت مفردات الوان الماشية من لغة وحياة افراد مجتمع الدنكا ـ كما يذهب لينهارت ـ فانه من الصعب عليهم وصف الخبرة البصرية في حدود من اللون والضوء والظلام. ويرتبط الرمز بمفهوم الهوية فعندما يصل الصبية في مجتمع الدنكا الى مرحلة الرجولة فانهم ينتقون اسماء الوان الثور بالاضافة الى الاسماء الشخصية الخاصة بهم والمعروفين بها. ويلقب الرجل باسم الثور ولونه الذي انتقاه خلال شعائر التكريس. وبذلك يصبح كل فرد متوحدا مع ثور معين ومتميزا عن اقرانه بلون محدد.

ويقصد لينهارت بالفعل الرمزي ذلك الفعل الذي يستخدم في مواقف وحالات لا يصلح فيها استخدام الفعل العملي او التقني. فالفعل الرمزي يستهدف السيطرة على الاتجاهات العقلية والاخلاقية من خلال اقامة طقوس وشعائر معينة.

وعلى سبيل المثال يتمثل الفعل الرمزي الذي يستخدمه افراد مجتمع الدنكا بغرض تطهير من انتهك الزنا بالمحارم في ان يؤخذ مقترف هذا الاثم برفقة بعض الاصدقاء الى بركة ماء حيث يقوم الاهل (بتوجيه من زعيم رمح الصيد) بتغطيسه في الماء ثم يؤخذ كبش (خروف) ويغطس ايضا في الماء. وبهذا الفعل الرمزي تنقل الخطيئة الى الكبش الذي يؤخذ بعد ذلك ويشطر حيا الى نصفين على ان يكون الشطر طوليا، ثم يوضع عضو التناسل ويشطر ايضا طوليا الى نصفين بعد فصلة عن الاجزاء الاخرى من الكبش. ثم بعد ذلك توزع الاجزاء على الحاضرين وتؤكل. (٤)

ثانيا: اصحاب الاتجاه الثاني في استخدام الرمز يعتمدون على التعريفات اللغوية المستمدة من المعاجم. وعادة ما يلجأ العلماء الى ذلك اما لعدم وجود تعريف جامع مانع مقبول او لاجل تدعيم وجهة نظر معينة تتفق وذلك التعريف اللغوي، ولقد استخدم فيكتور تيرنر Victor Turner الذي يعد من احد رواد المدخل الرمزي والذي سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ التعريف اللغوي

للرمز مقتبسا اياه من قاموس اكستورد الموجز. وطبقا لهذا التعريف فان الرمز هو «شيء متفق عليه بـالاجماع العـام على انـه يمثل او يستـدعي شيء آخـر بصـورة طبيعية عن طريق امتلاك صفـات ممـاثلـة او عن طـريق الارتبـاط في الـواقع او الفكر»(٥).

ثالثا : يميل اصحاب الاتجاه الثـالـث الى استخـدام مفهـوم «الـرمـز» طبقـا لتعـريفـات وضعت بواسطتهم او بواسطة مفكرين وعلماء آخـرين. والغـالبيـة العظمى من علماء الانثروبولوجيا يتبعون هذا الاتجاه. ومن اهم التعريفات المستخـدمـة تلك التعريفات التي ترجع في اساسها الى اعمال الفلاسفة وعلماء اللغة امثال تشارلـز بيرس Charles Peirce ودي سوسير De Saussure

والرمز عند بيرس Peirce يندرج تحت مفهـوم الاشـارة Sign التي يقسمها الى ثلاثة أنواع هي الصورة Icon والدليل Index والرمز Synbol. والصورة icon عبارة عن صورة شيء او موضوع تقوم على اساس وجود تشابه بينها وبين الموضوع المشار اليه. ومن الامثلة على هذا النوع من الاشارة الصور الفوتـوغـرافيـة ، والتماثيل والخرائط والرسوم البيانية. والنوع الثاني من الاشارة هو الدليل index ومن اهم خصائصه هو انه يشير الى الموضوع المشار اليه بسبب تأثـره بـذلك الموضـوع. فـالعـلاقـة بين الـدليل والموضوع المشار اليه تقوم على الاتصال وليس على التشابه. فالدليل جـزء من الموضـوع المشار اليـه ويتأثـر بـه وذلك مثل اعـراض المرض (التي تشير الى وجـود مـرض معين) والسحب الداكنة (التي تشير الى وقـوع او اقتراب هطـول المطر)، والطـرق على البـاب (الذي يشير الى هناك شخصا يطرق الباب). ويمثل الرمز Symbol النوع الثالث من الاشارات. ويشير الرمز الى الموضوع المشار اليه بفضل قانون أو عادة او اتفاق أو ارتباط في الافكار من حيث انه يعني ذلك الموضوع. وفي هذا المعنى تعتبر الكلمات والجمل او العبارات والكتب وسائر الاشارات المتفق عليها رموزا ويلعب المفسر او الشخص الذي يقوم بتفسير الرمز دورا اساسيا في اعطاء الرمز خاصيته الرمزية(٦).

ولقد طبق كثير من علماء الانثروبولوجيا تعـريـف او تصنيف بيرس Peirce للرموز في دراساتهم. وهذا ما فعله، على سبيل المثال، روى رابابورت Roy Rappaport في

دراسته عن الشعائر في سيمباجا Tsembaga (احدى الجماعات التي تتحدث لغة ماريخ Maring بغينيا الجديدة .(٧)

الرمز عند دي سوسير De Saussure هو نوع من الاشارة Sign يطلق عليه اسم المشير او الدالة Signifier. والاشارة تعني ارتباط كلي بين تصور ما Concept وصورة صوتية sound image محددة. وعلى سبيل المثال كلمة «شجرة» هي عبارة عن صوت مرتبط به تصور معين والعلاقة بينهما اي بين الصورة الصوتية والتصور هي علاقة تعسفية. ونفس الخاصية تنطبق على الرمز Symbol الذي هو اشارة او دالة Signifier للمعنى او التصور المرموز اليه Signified، فالرمز هو حامل التصور او المعنى. وبالرغم من اشتراك الرمز مع الاشارة في صفة التعسف القائمة بينه وبين التصور المرموز اليه، الا ان دي سوسير يذهب الى ان الرمز ليس تعسفيا بصورة كاملة او مطلقة كما انه ليس فارغا من المعنى حيث توجد رابطة طبيعية بين الرمز والمرموز اليه. وعلى سبيل المثال الميزان هو رمز العدالة ولا يمكن استبداله برمز آخر مثل المركبة او العربة .(٨)

استخدم كليفورد جيرتز Clifiord Geertz ـ الذي سوف نعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ مفهوم الرمز عند دي سوسير. والرمز عند جيرتز هو اي شيء يدل على شيء آخر لشخص ما، ويمكن لاي موضوع او فعل او حدث او علاقة ان يصلح كحامل لتصور ما، فالتصور هو معنى الرمز. فالرمز هو حامل للتصور او المعنى سواء اكان ذلك الحامل موضوعا ماديا او فعلا او حادثة او صفة او علاقة.

ويعتبر ادوارد سابير Edward Sapir من علماء الانثروبولوجيا الذين اهتموا بتقديم تعريفات للرموز من خلال دراساتهم في علم اللغة Linguistics ويقصد سابير بالرمز موضوع او علامة او اشارة الهدف منها استدعاء وتوجيه الاهتمام الخاص نحو شخص او موضوع او فكرة او نشاط مرتبط بصورة مبهمة او غير مرتبط على الاطلاق على اساس طبيعي بذلك الرمز. ويذهب الى ان كثيرا من الاشياء والموضوعات التي لا تعتبر هامة في حد ذاتها مثل الاعلام واشارات المرور تكتسب الصفة الرمزية على اساس انها تشير الى افكار وافعال ذات أهمية كبيرة في المجتمع .(٩)

ويقدم ديفيد شنايدر David Schneider احد رواد الانثروبولوجيا الرمـزيـة ـ تعريفا للرمز يقترب من تعريف دي سوسير De Saussure وسابير Sapir حيث يقول ان الرمز هو شيء يمثل او يصور شيء آخر على اساس من العـلاقـة التعسفيـة لا الضرورية. فالرمز بعبارة اخـرى هـو «شيء يمثل او يحل محل شيء آخـر لا تـربطـه بـه علاقة جوهرية او ضرورية بل ان العلاقة بين الرمز والمرموز اليه علاقة تعسفية» (١٠).

رابعا: يهتم اصحاب هذا الاتجاه الاخير بدراسة الرموز دون تقديم تعريفـات مسبقـة بل يركزون على التعريفـات والاستخـدامـات المحليـة التي يقـدمهـا افـراد المجتمع المدروس. وهذا الاتجاه نجده متمثلا في دراسة ايفانز بريتشـارد Evans pritd-hardللديانة النوير Nuer وبعض علماء الانثرولوجيا الآخرين الـذين يهتمـون بتعريفات المواطنين للرمـوز بـالـرغم من ان لـديهم تعـريفـاتهم الخاصـة بهم. ويوضح ايفانز بريتشارد كيف ان الرمز لدى افراد مجتمع النويـر لا يشير الى شيء مادي يرمـز الى فكـرة او تصـور مـا بل يعني ان فكـرة تـرمـز الى فكـرة اخـرى. وبالاضافة الى ذلك لا يقتصر معنى الرمز ومفهومـه في ذلك المجتمع على وجـود تصـورين او فكـرتين بمعنى ان فكـرة تحل محل (او تشير الى) فكـرة اخـرى، بل يتطلب الرمز ثلاثة تصورات او افكار. ويفسر ايفانز بريتشارد ذلك بقوله انـه في مجتمع النوير هناك اعتقاد لدى الافراد ان «التـوأمين هما طـائران» والعـلاقـة بين التوام والطائر هنا ليست علاقة ثنائية بين شئين او تصورين بل هي علاقة ثلاثية بمعنى ان الاعتقاد ان «التوام طائر» لا يفهم الا بـوجـود تصـور ثـالث مستتر في نسق تفكير افراد مجتمع النوير. وهذا التصور الثالث هو «الله». فـافـراد مجتمع النوير يعتقدون ان التـوام يشبـه الطـائر من حيث هـو مخلـوق علـوي يعيش في السماء كما انه طبقا لهذا المعنى هو احـد ابنـاء اللـه. ويضرب ايفـانـز بـريتشـارد Evans - Pritchard مثالا آخر من مجتمع النوير ايضا. فعندما يقـول افـراد ذلك المجتمع ان «الخيارة ثور» فان ذلك القول لا يمكن فهمـه بـوضـوح، ولكن العلاقة بين (الخيارة) كرمز وبين الثور تفهم في مضمون الشعيرة او القربان حيث يظهر التصور الثالث وهو «الله»، فالخيارة في القربان او الاضحيـة يقبلهـا اللـه لتحل محل الثور. (١١)

ويجب ان نؤكد هنا ان كثير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع لا يتقيدون باتجاه واحد محدد في استخدام وتعريف الرموز، حيث توجد الشواهد على وجود دراسات استخدم فيها بعض علماء الانثروبولوجيا اكثر من تعريف واحد وعلى سبيل المثال يستخدم فيكتور تيرنر Vicotr Turner تعريف المعجم اللغوي للرمز

ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ بالاضافة الى اهتمامه بتعريفات اخرى قدمها علماء اخرون مثل ذلك التعريف الذي اقتبسه من كارل يونج Carl Young الذي يميز فيه بين الاشارة والرمز، وطبقا لهذا التمييز فان الاشارة هي تعبير مشابها، ومختصر لشيء معروف. لكن الرمز فهو دائما افضل تعبير ممكن عن حقيقة مجهولة او غير معروفة نسبيا، لكن وجود هذه الحقيقة مدرك او مسلم به.

الرموز: خصائصها ووظائفها

تلعب الرموز دورا هاما في فهم المجتمعات البشرية اذ أن المجتمع والثقافة ينظر اليهما على انهما انساق اجتماعية وثقافية او رمزية. فالثقافة تعرف على أنها نسق معنوى أو رمزي أو على حد تعبير جيرتز Geertz هي «نمط من المعاني المتضمنة في رموز، والمنقولة تاريخيا، وهي نسق من التصورات المتوارثة المعبر عنها في اشكال رمزية عن طريقها يتصل الناس بعضهم ببعض ويواصلون وينمون معرفتهم واتجاهاتهم نحو الحياة(١٢) وإذا كانت الثقافة تتألف من انماط ثقافية مثل الدين والايدولوجيا والحس العام والفن ونحو ذلك فإن هذه الانماط هي الاخرى أنساق من الرموز تتحد وتتكامل كل منها مع الاخرى.

وسوف نجمل فيما يلي أهم الخصائص والوظائف المميزة والتي جذبت علماء الانثروبولوجيا والاجتماع لدراستها من ناحية، والاعتماد عليها في دراسة المجتمع والثقافة من ناحية اخرى.

أولا : تتصف الرموز بأنها جمعية. فالرموز على حد تعبير دوركيم Durkheim هي ظواهر جمعية بمعنى انها سابقة على وجود الافراد، وأنها في متناول الجميع

بالاضافة الى أنها تكون متضمنة في سلوك هؤلاء الافراد وافعالهم. وبأختصار شديد التصورات الجمعية Collective Representations عند دوركيم تعنى الرموز. وبالرغم من أن الرموز بهذا المعنى ليست من خلق شخص أو فرد بعينه الا انها تتصف بالخصوصية بمعنى أن شخصا واحدا قد يعتنقها ويؤمن باهميتها في حياته الخاصة بحيث يصبح الرموز الجمعي العام رمزيا شخصيا خاصا بفرد معين. ولكن هذه الخصوصية لا تتعارض مع الصفة الاساسية للرموز وهي كونها عامة وجمعية ومتفق عليها او يشترك فيها افراد مجتمع معين. وباختصار تتأسس الرموز تاريخيا وتستخدم بصورة فردية او خاصة وتبقى وتستمر اجتماعيا. (١٣)

واهمية الرموز الجمعية العامة تظهر في حقيقة أن الافراد يشتركون فيها ويستخدمونها في حياتهم اليومية. فبدون الرموز المشتركة ـ الجمعية والعامة ـ لا يمكن أن توجد مفاهيم أو معان وبالتالي لا يمكن أن توجد الجماعة اساسا.

ثانيا: الرموز شكل من اشكال التعبير. تبدو خاصية الرموز من حيث هي شكل متميز من اشكال التعبير في الرموز الدينية والسياسية والملابس القومية والاعلام والنصوص المكتوبة والرسوم والنقوش، التي تستثير الانفعالات القوية حول التوحد مع المجتمع أو الجماعة. فالرموز تدفع الناس للتفكير والتعبير عن فكرهم ذلك لأنها دائما تحمل معان كثيرة، وتتميز بالمرونة وسهولة التشكل والحضور في اكثر من شكل تعبيري واحد. وتظهر هذه الخاصية بأجلى صورها في الرموز التي تحملها عناصر التراث الشفاهي أو الشعبي من اساطير وحكايات واغان وامثال شعبية (١٤) وكذلك في لغة الجسد او البدن والفنون الشعبية وسائر اشكال اللغة والشعائر والموسيقى.

ثالثا: الرموز وسائل هامة في عملية الاتصال والتفاعل الاجتماعي. من حيث هي شكل من اشكال التعبير ومن حيث هي قوالب حاملة للمعاني والمفاهيم تقوم الرموز بمساعدة الافراد على تحقيق الاتصال بعضهم ببعض. واهمية الرموز في عملية الاتصال والتفاعل الاجتماعي تتضح في حقيقة انها تحل محل الاشياء

المرموز اليها، فالافراد يفكرون ويعبرون عن تفكيرهم بكلمات التي هي رموز وتصورات تسهل عملية الاتصال والتفاعل الاجتماعي فيما بينهم وعلى سبيل المثال يمكن لشخصين مختلفين تماما في حواسهم العضوية واهتماماتهم ومشاعرهم ان يفهم كل منهما الآخر اذا كانت تصوراتهم عن موضوع أو شيء أو شخص متطابقة أو متشابهة إذا كانت هذه التصورات المشتركة معبر عنها في رموز متفق عليها(١٥). فالرمو ذاتها تكون موضوع التفكير ذلك لانها تحل محل أو تمثل الاشياء او التصورات او الافكار المرموز اليها.

وبالاضافة الى ذلك تستخدم الرموز او تكون متضمنة في الافعال الرمزية وانماط السلوك الرمزي السائدة في مجتمع معين. ان اداء شعيرة معينة او فعل رمزي يسمح بتوصيل الافكار واعادة صياغتها بالاستعانة بحد أدنى من الكلمات أو بدون استخدام الكلمات على الاطلاق.

رابعا: الرموز وسائل لتحصيل وتخزين المعرفة. ان الادراك وانواع المعرفة المختلفة العلمية وغير العلمية، كما يذهب بارسونز T. Parsons تتأسس على الرموز وهناك اختلاف بسيط بين استخدام العلم للرموز والاستخدامات الاخرى لها. ففي العلم هناك علاقة بسيطة بين الرموز المرموز اليه، حيث يشير الرمز مباشرة الى الموضوع الطبيعي المادي. بينما في الدين على سبيل المثال يتصف الرمز بقدرته على الاشارة الرمزية المزدوجة أو المتعددة بمعنى أنه يشير الى اكثر من معنى في وقت واحد ومن حيث هي حاملات للتصورات بمعنى أنه يشير الى اكثر من معنى في وقت واحد ومن حيث هي حاملات للتصورات والافكار تتسم الرموز بقدرتها على توضيح المعاني المجردة بعد لن تجعلها مشخصة. وهذه الخاصية جعلت فيكتور تيرنر V. Turner يذهب الى أن الرموز عوامل ووسائل هامة في عملية الاتصال وتحصيل المعرفة في المجتمعات غير المتأدبة ويقول تيرنر ايضا ان الرموز تمثل مخزونا للمعرفة لكل من الفاعل او المبحوث والباحث او الانثروبولوجي نفسه. ان عملية التصور الرمزي symbolic representa-

tionهي عبارة عن تجريد صفة عامة دون الدخول في تفاصيل دقيقة وكثيرة، وهذا يعني ان المعلومات او المعاني المتعلقة بموضوع أو موضوعات معينة يمكن تمثيلها وتخزينها في رمز واحد سواء أكان هذا الرمز كلمة أو شيء أو فعل وبالاضافة الى ذلك يشير الرمز الى تصور معقد مرتبط بقيمة معينة ويستثير لدى مدركة تركيبا معقدا من التصورات والافكار والانفعالات التي تتحول بعضها لتصبح رموزا .(١٦)

خامسا: الرموز وسائل فعالة في الضبط الاجتماعي، ان ما يشير اليه الرمز يكون له قيمة في حد ذاته، وهذه القيمة تجعل من الرمز والمرموز اليه ـ مثل الطوطم أو العلم والوطن ـ محل تقدير واحترام، وتجعل أعضاء المجتمع يسلكون بصورة لا تخل من توازن ذلك المجتمع . وبعبارة اخرى تلعب الرموز دورا هاما في الضبط الاجتماع بمعناه الواسع بما يتضمنه من جوانب رسمية شرعية وجوانب غير رسمية ترتبط بالعرف والتقاليد والرأي العام . وفي هذا المضمون تستخدم الرموز كميكانيزمات في الضبط الاجتماعي في اكثر من مجال . فمن ناحية تستخدم، اي الرموز ـ كمرجع ودليل أو سند قبل ان يصبح السلوك مشكلة، ويكون اللجوء الى الرموز في هذه الحالة ضروريا على أساس أنها تمثل قيما معينة على الافراد الالتزام بها وعدم انتهاكها . اي ان وظيفة الرموز هنا هي انها تمنع المشكلة من الوقوع . والرموز بهذا المعنى تختلف عن استخدام القوة الفيزيقية كأداة لغرض النظام او الضبط الاجتماعي . ويعتبر الاسلاف والاجداد من حيث هم رموز لانماط سلوكية معينة، وكذلك الحكم والمأثورات المستمدة من التراث مراجع رمزية يرجع اليها الافراد للتأكد من تطابق سلوكهم مع قوانين ومعايير المجتمع، ومن ناحية اخرى تستخدم الرموز كوسيلة للضبط عندما تكون تحت السيطرة المباشرة لهؤلاء الذين يرغبون في التأثير على سلوك الآخرين وضبطه . وكما يذهب رايت ميلز right Mills يحاول الذين في السلطة تبرير سيطرتهم على النظم بربط سلطتهم برموز اخلاقية تكون محل الاعتقاد من الجميع . مثل الشعارات المقدسة والقواعد القانونية المستمدة شرعيا من الدين .(١٧)

تصنيف الرموز

كان من نتيجة اهتمام علماء الانثروبولوجيا بالرموز كمدخل لدراسة المجتمع والثقافة أن ظهرت المناهج والنظريات المختلفة التي تركز على جوانب معينة من الرموز من حيث صلاحيتها في الدراسة وبالتالي ظهرت تصنيفات متعددة للرموز استهدفت تأسيس اطار تصنيفي علمي لأهم الرموز التي تساعد على تحقيق فهم اوضح وادق للمجتمع أو الثقافة المدروسة. ومن اكثر التصنيفات ذيوعا تلك التي قدسها ادوارد سابيرEdward Sapir وفيكتور تيرنر Victor Turner وشاري اورتنر Sherry Ortner يضع سابير Sapir تمييزا بين صنفين من الرموز الصنف الاول يطلق عليه الرموز المرجعية Referential Symbols وهي تشير الى تلك الاشكال التي تشمل اللغة الشفاهية (الكلام) والكتابة، وشفرة التلغراف، والاعلام القومية وسائر التنظيمات الاخرى من الرموز المتفق عليها والتي تعتبر وسائل اقتصادية صالحة لأغراض مرجعية والنوع الثاني من الرموز الذي يتميز ايضا بالاقتصاد يطلق عليه سابير الرمزية المكثفة Consendation symbolism المشبعة بالانفعالات. وهذا النوع من الرموز يوصف بأنه شكل مكثف جدا من السلوك الاستبدالي للتعبير المباشر الذي يسمح باطلاق التوتر الانفعالي في صورة شعورية او لا شعورية ومثال على هذا النوع من الرموز المكثفة او التي تتصف بالتكثيف Condensation شعيرة التطهر او الاغتسال التي يقوم بها شخص عصابي مريض بالاستحواذ طبقا لتفسير التحليل النفسي. ويذهب سابير الى أنه في السلوك الفعلي الواقعي يمتزج ويتداخل هذين النوعين من الرموز فيما بينهما. وعلى سبيل المثال يمكن لانواع معينة من الكتابة والشعارات اللفظية - التي هي رموز مرجعية - أن تأخذ بسهولة صفة أو خاصية الشعائر الانفعالية (او الرموز المكثفة) وتصبح ذات اهمية بالنسبة للفرد والمجتمع من حيث هي اشكال استبدالية للتعبير الانفعالي. (١٨)

وعلى ما يقول سابير Sapir تكون الرموز المرجعية متأخرة في تطورها عن الرموز المكثفة. فمعظم الرموز المرجعية يمكن ردها الى رموز ظهرت بشكل لا شعوري مشبعة

بخاصية انفعالية والتي اخذت بالتدريج شكل الرموز المرجعية عندما اختفت من السلوك الانفعالات المرتبطة بها، ويضرب سابير مثالا على ذلك قائلا ان هز قبضة اليد في مواجهة عدو متخيل (التي هي رمز مكثف انفعالي) تصبح رمزا مرجعيا للغضب عندما لا يقصد بذلك الفعل اي عدو سواء أكان حقيقيا أم متخيلا.

بالرغم من بساطة التصنيف الذي قدمه سابير إلا أنه اثبت قيمته وفائدة في عملية التمييز بين موضوعات العالم الخارجي (او الرموز المرجعية) وبين الحالات النفسية المتعلقة بالعالم الداخلي للفرد أو الذات (الرموز المكثفة المشبعة بالانفعالات). لكن ما يؤخذ على هذا التصنيف ذلك الاعتماد على التحليل النفسي في دراسة الرموز، وخاصة الرموز المكثفة الانفعالية، بشكل يؤثر على طبيعة التحليل الاجتماعي والثقافي، لكن هذا النقد، لا يقلل من شأن اهمية بعض التصورات التي قدمها سابير Sapir وعلى وجه التحديد خاصية التكثيف Condensation التي اخذها وطورها تيرنر Turner في دراساته الرمزية.

يميز تيرنير Turner بين نوعين من الرموز، أولا الرموز المهيمنة Dominant symbols وهي تعتبر اهدافا في حد ذاتها سواء أكانت هذه الرموز متضمنة في الشعائر او مستخدمة في التفاعل الاجتماعي. ثانيا، الرموز الوسيلية Instrumental symbolsوهي رموز تستخدم كوسائل لتحقيق الأغراض أو الأهداف الاساسية في شعيرة معينة أو في التفاعل الاجتماعي.

تتسم الرموز المهيمنة بالخصائص التالية:

١ـ التكثيف Condensation بمعنى أن عدة أفكار وتصورات وانفعالات وافعال تتبلور وتتمثل في رمز واحد أو صياغة رمزية واحدة، وفي هذا المعنى يجمع تيرنر Turner بين مفهوم الرموز المرجعية ومفهوم الرموز المكثفة التي أشار اليها سابير Sapir فالرموز المهيمنة عند تيرنر هي رموز مرجعية وتكثيفية او مكثفة في نفس الوقت. واذا كان سابير ـ كما يقول تيرنر ـ ركز على الجانب الانفعالي من الرموز المكثفة، فان الرموز المهيمنة تتصف باتحاد الجانب الفكري او المعرفي والجانب الوجداني الانفعالي في وحدة واحدة.

٢ـ الوحدة Unirication او وحدة الرموز والمعاني المختلفة في صياغة رمزية واحـدة. ولتوضيح هذه الخاصية يضرب تيرنر Turner مثالا من مجتمع ديمبو N dembu (شمال غرب زامبيا Zambia أو روديسيا الشحانية أثناء دراسة تيرنـر الميـدانيـة للقبيلة او المجتمع). ففي هذا المجتمع توجد شجر لبن milk (Mudyi Tree) tree تستخدم كرمز أساسي تستخدم كرمز أساسي أو مهيمن يحتوي في مضمونه عدة معان مختلفة. فهذه الشجرة تعني الامومة، ومبـدأ الانتسـاب إلى الأم، كما أنها تعني أيضا صدر المرأة (وذلك الـوجـود المادة البيضـاء التي تشبـه اللبن)، ووحـدة واستمرارية مجتمع ديمبو ككل. لكن كل هذه المعاني يمكن توحيدهـا وربطهـا فيما بينهـا داخـل إطـار معنـى واحـد وهـو التغـذيـة nourishment والاعتماد dependence.

٣ـ قطبية المعنى Polarization of meaning وهذه الخاصية تعني أن الـرمـوز المهيمنة تحتوي على أبعاد أو أقطاب متقابلة ويميز تيرنر Turner بين قطبين. اولا القطب الحسي Sensory او الفسيولوجي الذي يرتبط بـالشكل الخارجي للـرمـز ويـرتبط ايضـا بـوجـدان ومشـاعـر ورغبـات النـاس. ثـانيـا، القطـب الايديولوجي Ideological او المعرفي والمعياري. ويرتبط هذا القطب بالافكـار والمعـايير والقيم التي يتـوجـه وتحكم اعضـاء المجتمع في تفـاعلهم وسلـوكهم. وبالاشارة الى المثال السابق المتعلق بشجرة اللبن التي تستخدم في شعيرة نضج الفتاة في مجتمع ديمبـو، يـذهب تيرنـر إلى أن الجانب او القطب الحسي (الفسيـولـوجي الخارجي) يتمثل في علاقـة التشـابـه الموجـودة بين لبن صـدر المرأة والمادة اللـزجـة البيضاء التي تفرزها شجرة اللبن. وعلى مستوى القطب الايديـولـوجي أو الفكـري فإن شجرة اللبن ترمز الى معاني الانوثة والامومة ووحدة واستمرارية الجماعات المؤلفة لمجتمع ديمبو.

بالنسبة للنوع الثاني من الرموز وهو الرموز الوسيليـة instrumental symbols يقول تيرنر Turner انها لا تكتسب اهميتهـا من حيث هي رمـوز في حـد ذاتها بل من حيث هي وسائل لاغـراض واهـداف محددة، ففي مجتمع ديمبـو N dembu هناك

شعيرة تستهدف تخصيب النساء وفي هذه الشعيرة تستخدم أجزاء من اشجار محملة بالثمار كوسيلة لتخصيب النساء. ويعتقد اهالي مجتمع ديمبو أن الثمار هنا تمثل (أو ترمز الى) لى الاطفال. كما ان هذه الثمار لها تأثير ايجابي في عملية التخصيب كما يعتقد افراد ذلك المجتمع. وعلى هذا الاساس ينظر تيرنر Turner لهذه الثمار على أنها رموز وسيلية تستخدم لتحقيق هدف أساسي للشعيرة وهو تخصيب النساء. (١٩)

هناك تصنيف آخر للرموز وضعه تيرنر. وهذا التصنيف يتعلق بالأسسس التي تقوم عليها معاني الرموز. ويشير تيرنر الى ثلاثة أسس ترتبط بها ثلاثة انواع من معاني الرموز.

١ ـ الأساس الاسمى Nominal ويتعلق باسم الرمز.

٢ ـ الأساس المادي او الجوهري substantial ويشير الى الخصائص الفيزيقية والكيمائية للرمز الذي تخضع للادراك الحسي والتي تدرك ثقافيا.

٣ـ الأساس الفني الصناعي Artifactual ويرتبط بالتغير التقني Techinical لموضوع يستخدم في الشعيرة بواسطة نشاط بشري هادف.

ولتوضيح هذه الاسس الثلاثة نشير الى المثال الذي استخدمه تيرنر. ففي نياقوسا Nyakyusa بتنزانيا Tanzania يوجد دواء يسمى اندوميلا Undumila يستخدم في شعائر بلوغ ونضج الفتاة والأساس الاسمى لهذا الدواء مشتق من كلمة يوكولوميلا Ukulumila التي تعني «يعض أو مؤلما». أما الأساس المادي الجوهرى فيتمثل في الخاصية الطبيعية للجذر النباتي المستخدم في الدواء والتي تجذبه الفتاة بأسنانها بعد وضعه في كوب. بينما يتمثل الأساس الفني الصناعي في المواد الرمزية المتعددة المؤلفة لذلك الدواء الذي يعتبر في حد ذاته رمزا أساسيا. وطبقا للتفسيرات المحلية التي يقدمها المواطنون ـ كما يقول تيرنر Turner ـ فإن هذا الدواء هو رمز وقائي ضد آلام الدورة الشهرية والجماع الجنسي بين الفتاة أو المرأة وزوجها وهذه الآلام يرمز اليها بتلك الألام التي تختبرها الفتاة عندما تأكل جذور النبات والملح المضاف اليها. بالاضافة الى ذلك فان عملية تناول الجذور النباتية لاذعة المذاق هي تمثيل رمزي لعملية الجماع ذاتها. (٢٠)

إن محاولة تيرنر لتصنيف الرموز وربطها بالمجتمع والثقافة هي محاولة مثمرة يمكن

الاستفادة منها وتطبيقها في مجالات الدراسات الرمزية المتعددة. لكن تيرنر لم يصب عندما أراد أن يضفي على الرموز المهيمنة خصائص وصفات متعددة لا تعدو في الواقع الا أن تكون مجرد تكرار أو صياغة مختلفة لخاصية أساسية واحدة. وهذا المشكلة في حقيقة الأمر متعلقة بمشكلة اختيار المصطلحات والتصورات المناسبة. فبالرغم من أن تيرنر حاول أن يؤسس مصطلحات دقيقة لتحديد أهم الخصائص الرمزية الا أن كثيرا من هذه المصطلحات او الصفات تتداخل فيما بينها ويختلط بعضها ببعض بصورة تجعل من متابعة ما يعنية تيرنر بها أمرا صعبا. فعلى سبيل المثال توصف الرموز المهيمنة على أنها تحتوي على معان كثيرة في وقت واحد، وأنها تختص بصفة التكثيف التي تعني أن مجموعة مختلفة من الافكار والاشياء والافعال تكون متمثلة في رمز واحد، ثم انها ـ اي الرموز المهيمنة ـ تمتاز بخاصية توحيد المعاني المختلفة في صياغة رمزية واحدة. وبالاضافة الى ذلك توصف الرموز المهيمنة على انها دائما متعددة المعاني Polesemous and multivocal ولا يخفى على القارىء التداخل الملحوظ في معاني تلك المصطلحات او التصورات التي هي في الواقع عبارات مختلفة لخاصية التكثيف. لكن هذا النقد لا يقلل من قيمة واهمية التصنيف الر ئيسي الذي وضعه تيرنر للرموز المهيمنة والرموز الوسيلية. وسوف نتعرض لذلك الجانب بالتفصيل فيما بعد، وبصفة خاصة عند مناقشة المنهج والنظرية.

نأتي الان الى التصنيف الذي وضعته شاري اورتنر Sherry Ortner تميز اورتنر بين نوعين من الرموز هما الرموز التلخيصية Summarizing symbols والرموز التفسيرية (التفصيلية) Elaborating symbols وتصف هذين النوعين من الرموز بانهما رموز أساسية محورية Key symbols.

النوع الأول من الرموز ـ الرموز التلخيصية ـ يلخص ويمثل بصورة يغلب عليها الطابق الانفعالي المعني الكامل لنسق رمزي او ثقافي. وتتميز الرموز التلخيصية بخواص التكثيف والاختصار والتركيز. وهي تشمل الرموز المقدسة وكل العناصر التي تكون موضع التقدير والاحترام والا عتزاز والمشبعة بالانفعالات مثل العلم والصليب، على سبيل المثال. فهذه الرموز ترتبط ارتباطا قويا باتجاهات الناس وتفرض عليهم

التزامات معينة كما انها تشير الى اشياء ومعـان مختلفـة في وقت واحـد . وهـذه الخاصيـة تكون مماثلة او مطابقة لخاصية التكثيف عند كل من ادوارد سـابير E. Sapir وفيكتور تيرنر V. Turner

النوع الثاني من الرموز يشمل الرموز التفسيرية (التفصيلية)-Elaborating sym- bols وهذه الرموز، على عكس الرموز التلخيصية، تقدم الأطر لتمييز المشاعر والأفكار المركبة غير المتميزة ، بحيث تجعلها مفهومة وسهلة التنـاول، وبـالاضـافـة الى ذلك فإن الرموز التفسيرية التفصيلية تترجم الافكار الى افعال ذلك لأنها تتمتع بالقـدرة على تنظيم الخبرة أو التجربة بفضل خاصيتها التحليلية، وهي من النادر أن تكون رموزا مقدسة أو موضع انفعالات قـويـة لكنهـا تكتسب مكـانتهـا بفضل وجـودهـا المنتظم والمتكرر في السلوك الرمزي والانساق الثقافية . (٢١)

وطبقا لتصنيف اورتنر تنقسم الرموز التفسيرية التفصيلية الى صنفين :

١ـ المجاز الجوهري Root metaphor

٢ـ السيناريو الأساس Key Scenario

المجـاز الجوهـري هـو رمـز اسـاسي يتميـز بقـوة تصـوريـة هي منبع ومصـدر كل التوجهات المعرفية والوجـدانيـة . وهـو ايضـا رمـز يعمل كي يميـز الخبرة ويضعهـا في مقولات ثقافية محددة مما يساعـد التفكير على تتبع العـلاقـة بين هـذه المقـولات، فمن وظيفة المجاز الجوهري هي انه يكشف عن وحدة التوجيه الثقافي الكامن تحت الجوانب المتعـددة من الخبرة، وتـذهب اورتنـر الى ان «الماشيـة» في مجتمع الـدنكـا التي درسهـا لينهارت Linhardt والتي عـرضنـا لها فيما سبق ـ يمكن النظـر اليهـا على أنها مجاز جوهـري ومنبع لكثير من الصـور التشبيهيـة والـذهنيـة ذات التأثير القـوي على تفكير ووجدان الافراد . ويظهر ذلك جليا في تصور افراد مجتمع الدنكـا عن بنـاء مجتمعهم في ضوء المجاز او تشبيهه بالتكوين الفيزيقي للثور.

وإذا كان المجاز الجوهري يقدم المقولات لتنظيم الخبرة التصورية، فان النـوع الثـاني من الرموز التفسيرية التفصيلية وهو السيناريو الأسـاسي يقـدم الاستراتيجيـات لتنظيم خبرة الفعل action experience كما أنه يقدم ميكـانيـزمـات الفعل الاجتماعي،

ومعنى أن رموز السيناريو الاساسي تمتلك قوة تنظيم الفعل هو أنها تقدم الاساليب الهامة في توجيه أفعال وخبرات الأفراد في حياتهم اليومية العادية. فالسيناريو الأساسي يدور حول الوسيلة في علاقتها بالفعل في ثقافة معينة. ويشمل السيناريو الاساسي الشعائر والافعال والممارسات وانماط السلوك السائدة في ثقافة معينة، ففي المجتمع الامريكي - كما تذهب اورتنر - تمثل قيمة «العمل الجاد» سيناريو اساسي في حياة افراد ذلك المجتمع لتحقيق الثراء والقوة. وهذا المعني المتعلق بالسيناريو الأساسي كرمز يشير الى الفعل والغاية والوسيلة يقترب الى حد كبير من معنى الرموز الوسيلية التي أشار اليها تيرنر Turner والتي ترتبط بالفعل والعملية الاجتماعية لتحقيق هدف معين.

إن الرمز الأساسي المحوري سواء أكان رمزا تلخيصيا أم تفسيريا تفصيليا له علاقة بالتنظيم الداخلي لنسق المعنى الثقافي طالما أن ذلك النسق يقوم بوظيفة للافراد الفاعلين وهي توجيه حياتهم الاجتماعية. وبالرغم من أن اورتنر Ortner تضع كل من الرموز التلخيصية والتفسيرية التفصيلية تحت صنف واحد وهو الرموز الأساسية-Key symbols إلا أنها تقارن بينهما على أساس اختلاف صفة الأساسية Keyness في كل منهما. وسوف نشير الى ذلك التمييز باختصار شديد في النقاط التالية:

١- المضمون في مقابل الشكل. إن صفة «الاساسية» المرتبطة بالرمز التلخيصي تنبع من المعاني الجوهرية المتعلقة بمضمون ذلك الرمز وأولوياتها المنطقية في علاقتها بمعان أخرى في النسق. أما صفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التفسيري التفصيلي فتنبع من الخصائص الصورية الشكلية وتأثيرها المسلم به ثقافيا على صياغة انماط من الظواهر الثقافية التنظيمية القابلة للتطبيق على نطاق واسع.

٢- الكيف في مقابل الكم. إن «أساسية» الرمز التلخيصي ترتبط بجوهرية وأهمية واطلاقية المعاني التي يصيغها في علاقتها بمعان أخرى في النسق، بينما «أساسية» الرمز التفسيري التفصيلي تنبع من اتساع مجاله الى الدرجة التي يقيم أو يؤسس فيها وبصورة متسقة علاقات بين عناصر ثقافية متنوعة ومختلفة.

٣- الرأسي في مقابل الأفقي. إن صفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التلخيصي تعتمد على قدرته على ربط المعاني ذات المستوى الأدنى بإفتراضات ومعان ذات مستوى أعلى

بالاضافة الى انه يحول المعاني السطحية إلى معان عميقة. أما بالنسبة لصفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التفسيري التفصيلي فتنبع من قدرته على الربط الداخلي للعناصر المختلفة على نفس المستوى وذلك بفضل قدرته على ان يظهر التشابهات او المماثلات الصورة بينهما ولقد طبقت شاري اورتنر Ortner هذا التصنيف للرموز في عدة دراسات قامت بها على مجتمع شربا Sherpa (بجبال الهيمالايا)، لكن يجب ان نذكر هنا ان التصنيف الذي وضعته اورتنر هو تصنيف أولي أو مبدأي يمثل مرحلة أولى نحو وضع تصنيف أكثر اتساقا وتفصيلا.

ولعل إسهام اورتنر في الدراسة الرمزية يتمثل في انها حاولت الاجابة على سؤال يتعلق بكيفية ادراك ان موضوع او شيء ما يمثل رموزا في مجتمع او ثقافة معينة، وتذهب الى ان هناك ادلة وشواهد تشير الى وجود رمز معين في المجتمع. ومن هذه الأدلة ما يلي:

١ـ أن يكون موضوع أو رمز معين (× على سبيل المثال) له أهمية كبيرة في آراء وأحاديث أفراد المجتمع.

٢ـ أن يكون لدى هؤلاء الأفراد اتجاهات ايجابية أو سلبية نحو ذلك الموضوع (×).

٣ـ حدوث أو تكرار وقوع (×) في اكثر من فعل ومضمون مثل الشعائر والفن والاساطير ونحو ذلك.

٤ـ أن يكون (×) مركزا للتوضيحات والتفسيرات الثقافية.

٥ـ أن يكون (×) محاطا بقواعد وجزاءات ثقافية. (٢٢)

المنهج والنظرية

ظهرت المناهج والنظريات الرمزية في الستينات وتبلورت في السبعينات والثمانينات من هذا القرن. ولقد كان ظهور المناهج والنظريات الرمزية في مجال الدراسات الانثروبولوجية ردا على الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت. ويتزعم هذه الاتجاهات

ثلاثة مدارس أو مداخل كبرى.

١ـ المدخل الوظيفي بزعامة كل من برونسلاف مالينوسكي Bronislaw Malinowski ورادكليف براون Radcliffe - Brown مؤسس المدرسة البنائية الوظيفية Structural Functional والذي أراد أن يجعل من علم الانثروبولوجيا فرعا من فروع العلوم الطبيعية. ويهتم هذا المدخل بوظيفة النظم والانساق الاجتماعية في حفظ البناء الاجتماعي واستمراره.

٢ـ المدخل المادي الثقافي الذي يعرف بالمادية الثقافية Cultural Materialism المرتبطة بالمادية التاريخية عند كارل ماركس Marx والتي ترد الظواهر الثقافية الى اسس مادية واقتصادية. ويرتبط بهذا المدخل ايضا التفسيرات الايكولوجية المادية متمثلة في كتابات ودراسات مارفن هاريس Harris واندروفايدا Vayda وغيرهم.

٣ـ المدرسة البنيوية Structuralism التي يتزعمها عالم الانثروبولوجيا الشهير ليفي ستروس Livi - Strauss وهذه المدرسة ترد الظواهر الاجتماعية والثقافية التي هي أبنية ظاهرة وسطحية ـ بحسب تعبير ليفي ستروس ـ الى ابنية عميقة ومستترة (بل ولا شعورية) تتألف من مبادىء وتصورات تكتسب معناها من خلال علاقات الضد أو التقابل الثنائية القائمة بينها بحيث ان اي تغيير في تلك العلاقات ينتج عنه تغيير في البناء ككل.

والمشاكل المنهجية والنظرية التي تعاني منها تلك المداخل الثلاثة هي أن كلا منها يركز على جانب واحد من الظواهر الاجتماعية والثقافية غافلا الجوانب الاخرى، وبعبارة اخرى يحاول كل مدخل ان يرد تلك الظواهر إلى مبدأ أو أساس واحد لا يقبل النقد او النقاش. وهذا الاساس اما ان يكون ماديا صرفا او عقليا (فكريا) محضا. وبالتالي انقسمت تلك المداخل والنظريات إلى إتجاهين رئيسيين هما الاتجاه التجريبي السلوكي (الوسيلي او الوظيفي) الذي ينعته سكوربسكي Skorupski بأنه مدخل اصحاب التفسيرات الحرفية (او الحرفيون) Literalists [٢٣] والاتجاه العقلي الفكري.

وأصحاب الاتجاه التجريبي السلوكي أو الوظيفي يعتقدون ان الفعل او السلوك

الذي يمكن ملاحظته هو الموضوع الذي يستحق الدراسة. وبالتالي فانهم يعطون للافعال أولية وأهمية على الأبنية التصورية ويذهبون إلى أن بناء الافكار ـ على عكس بناء الفعل من الصعب ملاحظته ودراسته بالاسلوب العلمي، بينما يذهب اصحاب المدخل العقلي الى ان البناء العميق (اللاشعوري) للأفكار والتصورات هو المجال الاساسي للدراسة الانثروبولوجية.

وبظهور المناهج والنظريات الرمزية حدث تحول من دراسة السلوك والبناء الاجتماعي والنسق الفكري المجرد أو المنعزل عن واقع الحياة الاجتماعية إلى الاهتمام بدراسة المعاني والرموز واللغة والادراك، واصبحت الحياة الاجتماعية تدرك وتفهم على انها تؤلف حوار أو نص Text أو نسيج من المعاني. ومن مميزات المدخل الرمزي هو انه لا يهتم بالمعنى الحرفي للسلوك أو الفعل او الظواهر الثقافية بصفة عامة بل يركز على المعنى والمغزي الكامن فيها. فالمدخل الرمزي يميز بين المعنى الحرفي أو السطحي لتلك الظواهر وبين معانيها الرمزية التي تجعلها تتسم بالاهمية والقيمة في نظر افراد المجتمع. ويهتم المدخل الرمزي بالمضمون والمحتوى، وهدفه الرئيسي هو تقديم وصف تفسيري شامل (من وجهة نظر الافراد المدروسين) لمعنى ومغزى بناء النص او الشعيرة مع الاهتمام الخاص باظهار الروابط والعلاقات الداخلية المجازية او التشبيهية داخل النص او الشعيرة او النسق الثقافي ككل. والمدخل الرمزي يدرس الجوانب المعرفية والوجدانية الانفعالية والادائية والتعبيرية لظاهرة معينة مع التركيز على الأبنية الايديولوجية العريضة الواسعة وعلى روح الثقافة Ethos داخل تلك الابنية، ولا يهتم المدخل الرمزي تأسيس نظرية عن أسباب الظواهر الثقافية والاجتماعية بل يهتم في المحل الاول بتقديم وصف تفسيري Hermeneutic لتلك الظواهر كما يفهمها أفراد المجتمع المدروس.

مع توسع وانتشار الدراسات الرمزية تعددت وتشعبت المناهج والنظريات، لكن يمكن اجمال أكثر تلك المناهج والنظريات شيوعا أو انتشارا وتأثيرا في مدخلين رئيسيين.

اولا: المدخل البنيوي الرمزي ويمثله ديفيد شنايدر David Schneider وثانيا: المدخل الرمزي الوصفي التفسيري hermeneutic أو الاثنوجرافي. وهذا المدخل

ينقسم الى قسمين كبيرين احدهما بـزعـامـة فيكتـور تيرنـر Turner ويهتم بالشعـائر والعمليات الاجتماعية والرموز المتضمنة فيها، والثاني بزعامة كليفورد جيرتز Clifford Geertz ويهتم بالـوصف الانثـوجـرافي المكثف Thick Descrption ومعالجة الثقافة والمجتمع على أنهما نصوص Texts يمكن قراءتها وفهمها. وسوف نتنـاول كل مدخل من هذه المداخل على حدة مع عقد مقارنة بين كل منها بالاخرى.

اولا: المدخل البنيوي الرمزي

يتزعم هذا المدخل، كما سبقت الاشارة ـ ديفيد شنـايـدر D. Schneider الذي تأثر بمفهوم الثقافة عند استاذه تالكوت بارسونز Talcott Parsons وبمفهوم البناء كما يستخدمه ليفي ستروس Livi - Strauss والثقافة عند شنايدر هي نسق او بنـاء رمزي يمكن تعريفه من خلال العلاقة الموجودة او القائمة بين عناصره، والمنهج البنائي الرمزي يركز على العلاقات الداخلية بين عناصر النسق الرمزي مستهدفا تحديد الـرمـوز الاساسية والبنـاء العميق للنسق ككل. فـالثقـافـة يجب أن تـدرس من خـلال الحدود والمصطلحات الخاصة بها ويجب الا ترد إلى أي نسق آخر غير ثقافي.

يرجع الفضل إلى ديفيد شنايدر ـ كما تقـول شـاري اورتنـر Ortner ـ في انـه (على عكس جيرتز Geertz الذي لم يهتم بالجوانب البنائية المتسقة من الثقافة) قـدم دراسـة متكـاملـة عن النسق الـرمـزي الثقـافي، ولكن كـان ذلك على حسـاب مفهـوم الفعل الاجتماعي فقد عزل شنايدر النسق او البناء الرمزي وفصله عن الواقع الاجتماعي متمثلا في سلوك وافعال الافراد. ويقول شنايدر مؤكدا على الاتجاه البنيـوي التجـريـدي «انني لست مهتما بوصف الانماط الفعلية للسلـوك او الفعل، او بما يفعلـه النـاس في الـواقع عندما يقومون بأدوارهم، أو بالادوار التي يلعبها الناس او بالترتيبات والتنظيمات العامة في سلوك او فعل السكان موضع الدراسة.

انني اهتم بنسق الرموز والمعاني وليس بالوصف description على اي مستوى إن عناصر الثقافة تكتسب معناها من علاقة كل عنصر بـالعنـاصر الأخـرى المؤلفـة لنسق

قائم على الاضداد والتقابل الثنائي . وفي هذا المعنى يقترب موقف شنـايـدر من آراء كل من ليفي ستروس Levi - Strauss ودي سوسير De Saussur على أسـاس أن المعنى عندهما يعتمـد على فكـرة الـرمـز أو تصـور الاشـارة Sign في علاقتهـا بسـائر الاشارات أو الرموز الاخـرى داخل نسق واحـد، بمعنى أنها إشـارات لا تشير الى واقع خارجي بل إلى علاقات مع رموز أو اشارات اخرى .

وفي دراسته الرمزية للنسق القرابى في المجتمع الامـريكي يهتم شنـايـدر بـالتعـريف الثقافي لقواعد القرابة الامريكية وبالاشكال الرمزية التي تنعكس فيها العلاقات والمعاني المرتبطة بالرموز المستخدمة . ولقد اسس شنايدر تحليله البنائي لنسق القرابة في المجتمع الامريكي على مفهوم علاقات التقابل والاضواء الثنائية مع ربط ذلك النسق بالقـواعـد والمعايير الثقافية السائدة في ذلك المجتمع . ويذهب شنايدر الى ان الحب يمثل الـرمـز الاساسي Core symbol المحوري في نسق القرابة الامريكي . ويوضح ذلك بقوله ان هناك علاقة تقابل بين الطبيعة والثقافة (متمثلة في القانون) . فالنسق القرابي الامـريكي يقوم على ذلك النوع من التقابل بين الطبيعة والقانون . او بعبارة اخرى النسق القرابي كما يفهمه افراد المجتمع الامريكي يـؤسس على عنصرين أسـاسيين هما الطبيعـة والقـانـون وذلك من خـلال مفهـوم الحب المرتبط بهذين العنصرين . ويتمثل العنصر الطبيعي في الحب القرابي Cognatic المؤسس على علاقة الدم Blood rela tionship كما يظهر في علاقة الآباء والأبناء، أما العنصر القانوني (الثقافي) فيتمثل في علاقة الـزواج أو المصاهرة المحكومة بقواعد وقوانين منظمة للعلاقـات الجنسيـة بين الـرجل والمرأة . وكما يشير شنايدر تستخدم في اللغـة الانجليـزيـة عبـارة "in law" التي تعني عـلاقـة المصاهرة او النسب بين اهل الزوجين والمحكومة بالقانون . ان الحب يربط علاقة الزواج (او المصاهرة) وعلاقة الدم (او القرابة) من خلال العلاقات الجنسيـة . فـالحب بمعنى العلاقة الجنسية هو فعل طبيعي ينتج عنه نتائج طبيعيـة (التكـاثـر والاعجـاب) . ومن حيث هو رمز للوحـدة فـان الحب هـو اتحاد اللحم واتحاد الاضـداد (الـرجل والمرأة) . ولكن وحدة الاضداد لا تكون مؤكدة من خلال الاحتواء فقط بل ايضا من خلال نتـاج الاتحاد المتمثل في وحدة الدم، أي الطفل . فـالطفل يجمع ويـوحـد في شخص واحـد مكونات وعناصر بيولوجية وراثية لكل من الاب والام . وهو بذلك يؤكد وحدة الـدم في

علاقته بالوالدين والاخوة والاخوات وهذه الوحدة تمثل وحدة الحب القرابي cognatic المرتبطة اشد الارتباط بالحب الجنسي conjugal بين الاب والام او الزوج والزوجة. (٢٤)

بالرغم من ان التحليل البنائي الرمزي الذي قام به شنايدر لنسق القرابة في المجتمع الامريكي يعد تحولا عن الدراسات الانثروبولوجية التقليدية وخاصة تلك المتعلقة بالدراسة البنائية الوظيفية للنسق القرابي بشكل عام، إلا أن هذا التحليل الرمزي قد عزل الجوانب الثقافية أو الرمزية عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية. إن اغفال المضمون الاجتماعي والتركيز على العلاقات الشكلية الصورية بين الرموز المحورية أو الاساسية لا يحل مشكلة التنوع في الرموز الثقافية المرتبطة بالتنوع والاختلاف في الطبقة الاجتماعية والعمر والجنس. كما ان اهمال الجانب التاريخي ترك مشكلة ظهور ونمو وتغير الرموز عبر الزمن بدون حل.

ثانيا: المدخل الوصفي الاثنوجرافي

ويسمى هذا المدخل ايضا باسم المدخل الوصفي الرمزي التفسيري Hermeneutic ويتزعمه كل من فيكتور تيرنر V. Turner وكليفورد جيرتز G. Geertz ويتفق هذين العالمين على الاهتمام بدراسة مشكلة «المعنى» وعلى اهمية الوصف او التفسير الذي يقدمه افراد المجتمع المدروس الذي يكشف ليس فقط عن نظرتهم لانفسهم بل ايضا عن رؤيتهم للكون والآخرين والبيئة المحيطة بهم. لكنهما يختلفان من حيث الأطر النظرية في معالجة الوصف او التفسير (الشرح) الذي يقدمه الاخباريون او افراد المجتمع المحلي موضوع الدراسة، وسوف نعرض لآراء كل من هذين العالمين موضحين أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

١ـ فيكتور تيرنر Victor Turner

استخدم فيكتور تيرنر طرق واساليب متعددة ومختلفة في جمع المادة العلمية المتعلقة بالرموز والشعائر، كما انه استخدم مناهج ونظريات متنوعة في تحليل الرموز. ويرجع

ذلك الى ان الرموز وخاصة الرموز الاساسية او المهيمنة Dominant Symbols تمثل مجموعة من المبادىء والموضوعات الثقافية المختلفة . فالرمز المهيمن يمكن ان يظهر في اكثر من جانب من جوانب الحياة الاجتماعية او في اكثر من شعيرة . فعلى سبيل المثال توجد شجرة اللبن milk tree (mudyi) التي هي رمز اساسي في مجتمع ديمبو N dembu بزامبيا ـ في اكثر من شعيرة حيث تظهر في شعائر تكريس الذكور والاناث من الاطفال ، مثلما تظهر في خمسة شعائر مختلفة متعلقة بخصوبة المرأة ونضج الفتاة ومشاكل الانجاب وعسر الولادة .

إعتمد تيرنر في دراسته للمجتمع من خلال المدخل الرمزي على عدة اطر نظرية استخدمها في وحدة واحدة ، وهذه الاطر النظرية تستند إلى آراء دوركيم Durkheim وماكس جلكمان Max Gluckman في التماسك الاجتماعي ، وتستند ايضا على افكار كارل ماركس Karl Marx وخاصة تلك التي تتعلق بعدم الانسجام وعدم الاتساق في العلاقات الاجتماعية والمتمثلة في وجود الصراع بين مكونات المجتمع . ومحور إهتمام تيرنر هنا هو الكشف عن العوامل التي تحقق تماسك المجتمع بالرغم من وجود الصراع والتناقض الذي هو حالة طبيعية مألوفة في الحياة الاجتماعية . اهتم تيرنر ايضا بنظرية فان جنب Van Gennep عن شعائر المرور Rites of passages التي يقسمها الى ثلاثة مراحل هي الانفصال Separation والانتقال transition والاندماج او الاتحاد incorporation . ويرجع الفضل لفيكتور تيرنر في أنه ركز على المرحلة الثانية (الانتقالية أو التحويلية) بحيث أن مصطلح الهامشية marginality او الانتقال Liminality أصبح مرتبطا به بصورة كبيرة كما سيتضح بالتفصيل فيما بعد .

يمكن اجمال الطرق او الاساليب والمناهج التي اتبعها تيرنر في دراسته للرموز (والتي يبدو واضحا فيها تأثير النظريات التي استخدمها) فيما يلي :

١ ـ المعلومات والمعطيات المتعلقة بالرموز والشعائر المتضمنة للرموز يمكن الحصول عليها عن طريق التركيز على الخصائص والصفات الخارجية التي يمكن ملاحظتها . ويضرب تيرنر مثالا على ذلك بشعيرة نضج الفتاة girl's puberty

في مجتمع ديمبو، حيث أن الخصائص والصفات الخارجية تتمثل أو تظهر في الطريقة التي تلف بها الفتاة في رداء ثم تستلقي عند جذع شجرة اللبن التي هي ايضا تعتبر رمزا مهيمنا. كما ان الجانب الحسي من شجرة اللبن يظهر في تلك المادة اللزجة البيضاء التي تشبه اللبن والتي تخرج من تلك الشجرة.

٢ـ ان معاني الرموز المهيمنة والرموز الشعائر، يمكن استنتاجها أو استخلاصها عن طريق التفسيرات أو الشروح التي يقدمها الاخباريون او المواطنون محل الدراسة. ويميز تيرنر بين نوعين من التفسيرات. فمن ناحية هناك تفسيرات الاخصائيين الذين لديهم معرفة خاصة بالشعيرة الرمزية والذين يقودون الجماعة في ادائها. ومن ناحية اخرى هناك التفسيرات التي يقدمها الافراد غير المتخصصين والذين يشتركون في أداء الشعيرة. ففي شعيرة بلوغ او نضج الفتاة على سبيل المثال يذهب المتخصصون الذين يقودون تلك الشعيرة إلى أن شجرة اللبن هي الشجرة القديمة التي هي في نفس الوقت رمز للامومة أو الانتساب إلى الأم في ذلك المجتمع الاموي matrilineal ويشير هذا التفسير الى المبدأ الذي يقوم على المجتمع. أما غير المتخصصين والذين يشتركون في آداء الشعيرة يفسرون شجرة اللبن على أنها رمز يشير إلى وحدة وإستمرارية مجتمع ديمبو فشجرة اللبن بالنسبة لاحدى الاخباريين هي بمثابة الرمز أو العلم المميز لذلك المجتمع.

٣ـ الفهم الاجرائي Operational understanding للرموز. ويتحقق ذلك النوع من الفهم عن طريق ملاحظة ليس فقط ما يقوله الافراد بل ايضا ما يفعلونه سواء في مواقف أو شعائر معينة.

وعلى عكس شنايدر Schneider يولي تيرنر Turner اهتماما كبيرا بالفعل action في المضمون الاجتماعي والشعائري. والمعنى الاجرائي للرموز عامل له اهميته الخاصة في الديناميات الاجتماعية أو التغير الاجتماعي. فالرموز بعبارة اخرى تستوجب (أو ينتج عنها) الافعال.

وهذا الفهم الاجرائي يتطلب من عالم الانثروبولوجيا ان يهتم ببناء وتكوين الجماعة التي يؤدي او يمارس افرادها أفعالا معينة مرتبطة برموز محددة. والفهم الاجرائي يتطلب

أيضا الاهتمام بالجوانب الانفعالية الوجدانية للفاعلين.

٤ـ تحليل العلاقات والمضمون. ويقصد تيرنر بمفهوم العلاقات هنا ان معنى الرمز ينبع من علاقته بالرموز الاخرى في مضمون كلي محدد.

وهذا النوع من التحليل يعد العمل النهائي والاساسي للباحث الذي يهتم بدراسة المجتمع والثقافة ليس فقط من خلال مفهوم الفعل الاجتماعي والشعائر بل ايضا من خلا ل مفهوم النسق الرمزي وعلاقة كل رمز بالرموز الاخرى المؤلفة لذلك النسق. ومفهوم الرمز بهذا المعنى يرتبط بخاصية تعد من اهم خصائصه المميزة وهي ان له ـ اي الرمز ـ معاني متعددة ومتمايزة تظهر في مضمونات مختلفة وفي علاقات متنوعة مع رموز اخرى. (٢٥)

ان تحليل العلاقات جعل تيرنر يستعين بأفكار ليفي ستروس Levi - Strauss البنيوية وخاصة علاقة التقابل والاضداد الثنائية binary oppositions ولكن تيرنر يذهب خطوة ابعد من ليفي ستروس في توظيفه لعلاقات التقابل أو الاضداد الثنائية ليدرس الصراع والانقسام داخل المجتمع الذي يبدو متحدا ومتماسكا. ويعتمد تيرنر في ذلك على تحليل الرموز المستخدمة في ذلك المجتمع والتي تكشف عن الانقسام والصراع وعن الوحدة والتماسك في صورة متزامنة.

ويشير تيرنر Turner الى انه يوجد في مجتمع Ndembu نوعين من الاخشاب المستخدمة في بناء الاساس الذي يشيد عليه المنزل أو الكوخ. والاشجار التي يصنع منها هذين النوعين من الاخشاب لها دلالة رمزية، فالنوع الاول من الخشب هو خشب شجرة اللبن milk tree والنوع الثاني هو خشب شجرة الدم(mukula) blood tree وشجرة الدم هذه هي رمز للزوج او الرجل الذي سوف يتزوج بالفتاة التي تمر بشعيرة النضج، اي نضج الفتاة، بينما شجرة اللبن فانها ترمز الى الزوجة او الفتاة التي مرت بالفعل بتلك الشعيرة، ويذهب تيرنر في البحث عن مغزى ومعنى هذه الرموز المرتبطة بالاشجار.

ان معنى كلمة Mukula لدى افراد مجتمع ديمبو هو الدم المقترن بالمادة الحمراء التي تخرج من مسام او فتحات شجرة الدم. وطبقا لتفسير المواطنين هناك صنفان من

الدم (المادة الحمراء). فمن ناحية هناك دم الذكور (الرجال) ومن ناحية اخرى هناك دم الاناث (النساء) وفي وحدة هذين النوعين من الدم تكمن وحدة المجتمع. وبالنسبة لشجرة اللبن في نفس المجتمع (ديمبو) فانها ترمز الى جوانب اجتماعية متعددة مرتبطة بالتمايز والصراع بين اعضاء ذلك المجتمع. ففي شعيرة نضج الفتاة ـ التي تكون شجرة اللبن فيها رمزا اساسيا ـ يوجد تقابل بين النساء اللائي يرقصن ويؤدين الشعيرة، وبين الرجال الذين لا ينخرطون في تلك الشعيرة بل ان داخل الشعيرة ذاتها هناك صراع بين الام والابنة مثلما يوجد صراع بين جماعات مختلفة، ويقول تيرنر مستندا الى منهج العلاقات الضدية او المتقابلة، قيل لنا ان شجرة اللبن تمثل الرابطة بين الابنة والام، إلا أن شجرة اللبن تعزل الابنة عن الام. قيل لنا ان شجرة اللبن تشير الى وحدة مجتمع ديمبو، لكن نجد في الواقع أنها تفصل النساء عن الرجال، وانواع معينة من جماعات النساء عن جماعات أخرى من النساء. وفي هذا النص نجد التقابل أو التضاد القائم بين الرجال والنساء من ناحية، وبين الاجيال داخل الجنس الواحد (مثلما هو الحال بين الابنة والام) من ناحية اخرى. فمن خلال المدخل الرمزي يركز تيرنر على الرموز كأداة حيوية لفهم المجتمع. فشجرة الدم وشجرة اللبن هما رمزان أساسيان يمثل الأول (شجرة الدم) الرجل بينما تمثل شجرة اللبن الانثى أو الزوجة. والرابطة بين هذين الرمزين تتبلور في الجانب الحسي الذي يعني العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، ويتبلور ايضا في الجانب الفكري المعياري متمثلا في فكرة الزواج الذي يوحد الاضداد في وحدة واحدة والذي هو أساس الأسرة (المنزل أو الكوخ) نواة المجتمع.

ان اهمية الاسهام الذي قدمه تيرنر يتمثل في اهتمامه بمضمون العلاقة البنائية بين الرمز والمرموز اليه او بين الرمز والمعنى المرتبط به من خلال علاقته بالرموز الاخرى في المضمون الاجتماعي. وبهذا المفهوم استطاع تيرنر ان يتغلب على مشكلة الجوانب الصورية الشكلية المجردة التي يعاني منها المنهج البنيوي Structuralist الذي يعتمد على مجرد العلاقات القائمة بين وحدات النسق بالمفهوم الذي يستخدمه ليفي ستروس Levi - Strauss فعن طريق الجمع بين المضمون الاجتماعي للرموز وبين العلاقة البنائية بين الرمز والرموز الاخرى في اكثر من مضمون قدم تيرنر بعدا جديدا لعملية الوصف والتفسير التي يقوم بها الانثروبولوجي بالمقارنة بالوصف او التفسير

الذي يقدمه الاخباريون او المواطنون. وعلى عكس اصحاب المدرسة البنائية الوظيفية التقليدية (دوركيم، ورداكليف براون على سبيل المثال) الذين يهتمون بحالة التضامن الاجتماعي ووحدة المجتمع اهتم تيرنر بمقولة الصراع وعدم التجانس او اللابناء- anti structures وبعمليات التغير والانتقال والتحول وان لم يغفل مفهوم التضامن او وحدة المجتمع.

ويقصد تيرنر بمفهوم اللابناء تلك الحالة او المرحلة الانتقالية التي يتصف بها الافراد عند انتقالهم من حالة الى حالة اخرى betwix and between ولقد سبق ان ذكرنا ان تيرنر استخدم نظرية فان جنب Van Gennep عن شعائر المرور التي تشمل شعائر الانفصال، وشعائر الانتقال ثم شعائر الاتحاد. اهتم تيرنر بصفة خاصة بمرحلة الانتقال على انها تمثل مرحلة تحويلية Transitional ينتقل فيها الافراد وخاصة الاطفال والمراهقين من حالة عدم النضج والاكتمال الى حالة أخرى وهي النضج. وفي هذه المرحلة الانتقالية تستخدم الرموز والشعائر الرمزية لتحويل الافراد او الشخصيات غير محددة المعالم والأدوار الى شخصيات لها أدوار ووظائف في المجتمع. وعلى سبيل المثال، الافراد الذين يمرون بالمرحلة الانتقالية التمويلية لا يتميزون بمكانة محددة وليس لديهم هوية أو يمتلكون شيئا أو خاصية معينة ـ ملبس أو رتبة أو وضع قرابي ـ يميزهم عن رفاقهم الذين يمرون بنفس المرحلة. لكن بالرغم من أن تيرنر يصف هذه المرحلة الانتقالية Transitional او الهامشية بأنها مرحلة لا بنائية anti - structural الا أنه يذهب إلى أن هذه المرحلة تتميز بنوع معين من البناء الاجتماعي (بمعنى العلاقات الاجتماعية) يتمثل في العلاقة بين الصغار والكبار، حيث يخضع الاطفال او الصغار لسلطة واوامر الكبار (الاساتذة والآباء وأولياء الامور وكل من له دور قيادي). لكن هناك مساواة كاملة بين الصغار أو الأطفال من حيث انهم يشتركون معا في صفة عدم النضج وما تقوم به الرموز من حيث هي قوى اجتماعية Social forces هو تحويل الافراد من هذه المرحلة الهامشية الانتقالية الى مرحلة التكامل والنضج والتكيف مع المجتمع.(٢٦)

٢ـ كليفورد جيرتز Clifford Geertz

يعد جيرتز من ابرز رواد المدخل الرمزي (الاثنوجرافي) في دراسة المجتمع والثقافة. وهو وإن كان يميل الى التركيز على الثقافة بشكل ملحوظ إلا أنه ـ على عكس ديفيد شنايدر ـ لا يعزلها او يفصلها ورموزها عن واقعها الاجتماعي. ومن اجل ان نتعرف على الاطار النظري الرمزي لدى جيرتز نشير الى المحاور الاساسية التي اسس عليها تحليله الرمزي للثقافة. ويمكن اجمال هذه المحاور في ثلاث نقاط اساسية.

اولا : الثقافة عند جيرتز ليست مجرد معتقدات وافكار وتصورات محبوسة داخل عقول الافراد بل هي خارجية وعامة وقابلة للملاحظة والدراسة العلمية. وهي كذلك لانها تكون متضمنة في رموز عامة Public symbols التي من خلالها يعبر افراد المجتمع عن رؤى العالم World views وتوجيهات القيمة التي لديهم، وروح الثقافة ethos المميزة لهم. وهي أيضا الرموز التي عن طريقها يستطيع الافراد ان ينقلوا تلك الرؤى والقيم الى الناس الاخرين والى اجيال المستقبل بل وايضا الى علماء الانثروبولوجيا انفسهم.

ثانيا : الثقافة والرموز التي تستخدم للدلالة عليها يجب ان تدرس وتفهم من خلال وجهة نظرا الفاعل او المواطن Native's point of view. وهذه النقطة مرتبطة بالنقطة السابقة بمعنى ان الانثروبولوجي لا يدخل عقول الافراد كي يتعرف على وجهات النظر التي لديهم، بل بمعنى أن الثقافة من حيث هي نسيج من الرموز هي نتاج الكائنات الاجتماعية او الفاعلين الافراد في تفاعلهم الاجتماعي وفي محاولتهم اضفاء معنى على العالم الذي وجدوا أنفسهم فيه. وبالتالي يجب الاهتمام بهؤلاء الفاعلين الافراد من خلال التركيز على انماط الفعل الرمزي Symobolic action سواء اخذ الشكل القولي أو غير القولي.

ثالثا : ان المجتمع والثقافة او الانماط الثقافية وكذلك انماط الفعل يمكن النظر اليها على انها نصوص Texts يمكن قراءتها وتحليلها وفهمها.

ان جيرتز يهتم من ناحية بتحليل أنساق المعنى المتضمنة في الرموز، ومن ناحية اخرى بربط انساق المعنى بالعمليات الاجتماعية البنائية والسيكولوجية. والمنهج الذي

يتبعه جيرتز Geertz في الدراسة الرمزية يرتبط اشد الارتباط بمفهوم الثقافة عنده والتي هي نسيج من المعـاني والتـي تتطلـب ليـس العلـم التجـريبـي الـذي يبحـث عـن القانون Law بل التحليل الـوصفي descriptive analysis الـذي يبحث عن المعنى meaning. فالثقافة عنـد جيرتـرز هي نمط من المعـاني المتضمنـة في الـرمـوز والمنقولة تاريخيا، وهي نسق من التصورات المتورثة التي يعبر عنا في اشكـال رمـزيـة من خلالها يوصل وينمي الناس معرفتهم بالحياة واتجاهاتهم نحوها.

والمعنى كما يستخدمه جيرتز يرتبط بمفهوم «علم حيـاة الاشـارات في المجتمع» The Science of the life of signs in society الذي يهتم بتفسير الرموز في البيئة الاجتماعية، فالمعنى هنا ليست جزءا جوهريا من العمليـات والافعـال او الموضـوعـات التي تحمله بل يكون مفروضا عليها ويتفق جيرتز هنا مع دي سوسير De Saussure ودوركيم Durkheim وماكس فيبر Max weber وباسونز Parsons ومن اجل تفسير المعنى فأن الانثروبولوجي يبحث عنه لدى النـاس في تفـاعلهم الاجتماعي حيث أن هؤلاء الناس هم الذين فرضوا ذلك المعنى على الظواهر والافعال.

يتفق جيرتز مع فيكتور تيرنر Turner في تقد المنهج البنائي الرمزي الذي استخدمه ديفيد شنايدر Schneider. وكما يقول جيرتز عالج شنايدر الثقافـة على انها بنـاء او نسق رمزي مستقل بذاته وذلك عن طريق عزل العناصر والرموز المؤلفة البنائي الـرمـزي المجرد كما يذهـب جيرتـز لغفل العـوامل الخارجيـة والبيئـة الاجتماعيـة لها والكشف عن العلاقات الداخلية بين تلك العناصر او الرموز. وهذا المنهج البنائي الرمزي المجـرد كما يذهـب جيرتز يغفل العـوامل الخارجيـة والبيئـة الاجتماعيـة وافعـال الافـراد في حيـاتهم الواقعية. وعلى عكس شنايدر اذن ركز جيرتز على الفعل الاجتماعي للافراد ذاهبا الى انه من خلال ذلك الفعل الاجتماعي فان الاشكال الثقافية والرمزية تظهر وتتبلور في صورة واضحة بحيث يمكن النظر اليها على انها نصوص Texts.

يتفق جيرتـز مع كـل مـن شنـايـدر وتيرنـر Turner في استخـدام نظـريـة الاشارات sings (او الدالات والرمز) كما وضعها دي سوسير De Saussure، لكنه يختلف عنهما في انه لم يستخدم المنهج البنيوي Structuralist سواء بمعنى العلاقات

الداخلية (القائمة على التضاد والتقابل) بين الوحدات (الرموز) المؤلفة للنسق ـ كما فعل شنايدر ـ أو بمعنى الأضداد الثنائية في المضمون او الـواقع الاجتماعي ـ كما فعل تيرنـر. التزم جيرتز بمفهوم الرمز كنوع من الاشارة حاملة المعنى دون ان يقدم تضنيفا للرموز كما فعل تيرنرو سابير واورتنر، وهو في هذا الصدد يتفق مع شنايدر الذي لم يضع هو الاخـر تصنيفا للرموز او الاشارات. وما نقصده هو ان جيرتـز Geertz استخدم الرموز على انها تنـدرج تحت علـم الاشـارات Semiotics دون الالتـزام بـالابعـاد الصـوريـة الشكلية Formalistic متمثلة في المدخل البنيوي او الجوانب المدرسية Scholastical التقليدية متمثلة في كتابات بيرس Peirce.

ان اهتمام جيرتز بدراسة المعاني المتضمنة في الرموز او الموضـوعـات والاحـداث التي تقع في الحياة اليومية للافراد جعلته يولي اهتماما كبيرا بالدراسة الاثنوجرافية التي يصفهـا بالدراسة الوصفية المكثفة Thick description التي تحتاج الى تفسير رمـزي her-meneutic - interpretive فالدراسة الاثنوجرافيـة لثقـافـة او مجتمع معين تفسر سلوك وافعال الافراد على انها أنماط ثقافية مألوفـة في المضمـون الاجتماعي التي وجـدت فيه ومن وجهة نظر الافراد الذين يقومون بتلك الافعال. فالاثنوجرافيـا هنـا ـ كما يقـول جيرتز Geertz ـ تشبـه قـراءة النص manuscript أو هي تحليـل نصيTextual analysis ذلك لان المادة التي يتعامل معهـا الانثـروبـولـوجي هي عبـارة عن أبنيـة تصورية متعددة ومتنوعة وبعبارة اخرى الاشكال او الانماط الثقافية يمكن دراستها على أنها نصوص Text وعلى أنها اعمال خيالية تألفت من مواد اجتماعية. واذا كان التفسير او الوصف الاثنوجرافي هو عبارة عن قراءة، الأحداث والافعال، فـان ذلك لا يعني ان نفصل هذه القراءة عن تلك الاحداث والافعال و إلا أصبحت (أي الافعال والاحداث) خاوية من المعنى، فالاحداث الاجتماعية وأفعال الافراد تعامل على انها نصوص قـابلـة للقراءة وقراءة النص هنا تعني العملية التي من خلالها تصبح الانماط غير المكتـوبـة من السلوك والكلام (اللغة) والمعتقدات والتراث الشفاهي والشعيرة مـؤلفـة لنص متنـاسق ذي معنى. وهذا النص ذو المعنى يمكن عزله عن الموقف الحالي الـذي حـدث فيـه مع ربطه بمضمون ذلك الموقف بحيث يمكن قراءة وفهم ذلك النص فيما بعـد وفي غيـاب

الموقف ذاته ولكن ليس منفصلا عن المضمون .

إن الاسهام الحقيقي الذي قدمه جيرتز Geertz للانثروبولوجيا الرمزية يتمثل في إهتمامه بالرموز الثقافية وبالفاعلين الافراد الذين يستخدمون تلك الرموز في حياتهم الاجتماعية. وهؤلاء الفاعلون الافراد او المواطنون هم الذين يقومون بوصف وتفسير الاحداث اليومية بحيث تصبح حياتهم الاجتماعية جزءا من الواقع الذي يصفونه او يفسرونه. واوصاف وتفسيرات هؤلاء المواطنين هي جزء من علم الانثروبولوجيا بمعنى انها جزء من نسق التحليل العلمي. فتلك الاوصاف او التفسيرات (التي يقدمها افراد المجتمع المدروس) هي التي يقبلها ويستخدمها علماء الانثروبولوجيا. وبعبارة اخرى ان تفسير علم الانثروبولوجيا يأتي بعد تصنيف وترتيب وتنظيم ما يقوله (ويعتقد فيه) الاخباريون. فالتقارير والكتابات التي يقدمها الانثروبولوجي هي عبارة عن تفسيرات ونماذج ثانية وثالثة او رابعة لنفس التفسير الاول الذي قدمه الاخباريون او المواطنون.

ويشير جيرتز الى ان الاوصاف والتفسيرات التي يقدمها المواطن او الاخباري تشبه الروايات Fictions والقصص بمعنى انها شيء تم صياغته وتألفه[٢٧]، ويعمم جيرتز هذا القول على الثقافة ككل حيث يذهب الى ان ثقافة شعب ما يمكن النظر اليها على انها مجموعة من النصوص ensemble of texts جمعها الشعب نفسه، وهي قصة يحكيها الناس لانفسهم عن انفسهم.

المراجــــع

1 - Spiro, Meflord E. "Discussion" in Forms of Symobic Action : Proceedings in the 1969 Annual Spring Meeting of the American Ethnological Society. Robet E. Spencer (edita). The Univ. of Washington Press 1969. P. 313

2 Firth, Raymond. Symbols: Public and Private. (1) Ithaca, New York: Cornell University Press. 1973. P. 27, P 54

3- FDernadez, J.W "On the Concept of the symbol "Current Anthropology 1975. Vol. 16. No. 4 (652-654). P. 653

4- Lienhardt, Godfrey. Divinity and Experience: The Religion of the Dinka. Oxford Univ. Press. 1976 (1961). PP 12-14, P. 285.

5- Turner, Victor. The Forest of Symbols. Itheca, New York: Cornell Univ. Press. 1982 (1967) P.19.

6- Peirce, Charles. "Logic as Semiotic: The Theory of Signs" in J. Buchler (ed.) Philosophical Writings of Peirece. New York: Dover. 1940 (1902) P.102.

7- Rappaport, Roy A. Ecology Meaning and Religion. Berkeley Calefornia: North Atlantic Book. 1979. PP 173-221.

8- De Saussure, Ferdinand, Courses in General LInguistics. Translated with and Intraduction and notes by Wade Baskin New York, Toronto. London: Mc Graw-Hill Book Co. 1966 (1915) P. 66.

9- Saspir, E. "Symbolism" Encyclopedia of the Social Sciences, 1933. Vol. XIV (492-495) P. 492.

10 - Schneider, David, American Kinship : A Cultural Account.

Chicago and fondon : The University of Chicago Press. 1980 (1968) P.1.P. 31.

11 - Evans-Pritchard, E.E. Nuer Religion. Oxford Unviersity Press. 1977 (1956) P. 135, P.142.

12 - Geertz, Clifford. The Interpretation of Caltures. New York. Basic Books. 1973. P. 89, P. 91.

13 - Ibid 363 - 364.

١٤ ـ السيد حافظ الاسود . التراث الشفاهي ودراسة الشخصية القومية ـ مجلة علم الفكر ١٩٨٥ المجلد ١٦ العدد ١ (٢٧١ ـ ٢٩٤) مطبعة حكومة الكويت .

15 - Langer, Susanne, Philosophy in a New Key: A Study of Symbolism of Reason, Rite and Art. Harvard Univ. Press. 1957 (1942) P. 71, P. 102.

16 - Wallace, Anthony. Culture and Personality. New York. Random House, 1961. P. 62.

17 - Firth, R. op. Cit. P. 86.

18 - Ibid., P. 493.

19 - Turner, V. The Forest of Symbols. Op. Cit. P23, P. 32.

20 - Turner, Victor "Symbols in African Rituals" in Science. 1973. Vol. 179. March (1100-1105) P. 1103.

21 - Ortner, Sherry. "On Key Symbols" American Anthropologist. 1973. Vol. 75 No. 5 (1339 - 1345) P. 1340

22 - Ibid, P. 1339.

23 - Skorupski, John. Symbols and Theory: A Philosophical Study of Theories of Religion in Social Anthropology. Cambridge Univ. Press 1976. P. 12 ; P. 123.

24 - Schneider, Dr. American Kinship. Op. Cit. 129.

25 - Turner, V. The Forest of Symbols Op. Cit. P. 20, P. 51, P.94 .

26 - Ibid, P. 99 , P. 100.

27 - Geeertz, Clifford. The Interpretation of Cultures. Op. Cit. P. 15.